قصة
سيدنا داود وسيدنا سليمان

قصة سيدنا داود ، وسيدنا سليمان عليهما السلام

ولم يقتصر القرآن على ذكر أيام الله وما لقيه الأنبياء ، والرسل من تكذيب وسخرية وإهانة ومطاردة من الأمم التي بُعثوا فيها ، وما لقيت هذه الأمم من عقوبة وعذاب وهلاك ودمار ، لتكذيبها للرسل واستهزائها بهم وكيدها لهم ، وهمّها بقتلهم ، كما مرّ بكم في قصص النبيين .

١ـ القرآن يتحدث عن آلاء الله

بل تحدث القرآن كثيرًا عن آلاء الله ، وحكى في بسط أحيانًا وفي اختصار أحيانًا عن نعم كثيرة ، أنعم بها على كثير من الأنبياء ، منهم داود وسليمان ، ومنهم أيوب ويونس ، ومنهم زكريا ويحيى .

فأما داود وسليمان فقد مكَّن الله لهما في الأرض ، ووسَّع لهما في الملك ، ومدَّ لهما في العلم ، وعلمهما كثيرًا مما جهله الناس ، وسخّر لهما الأقوياء والعتاة ، وما لا ينقاد من الحيوانات والجمادات ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ .

[النمل:١٥]

٢ـ نعمة الله على داود

فأما داود فقد سخَّر الله له الجبال ، والطير تتجاوب معه في الدعاء والتسبيح وعلّمه صنعة الدروع ، وألان له الحديد .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ

سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ:١٠] .

ويقول : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ .

[الأنبياء:٧٩]

٣ـ شكره على هذه النعمة

وكان داود مع هذا الملك الواسع واليد الحاذقة القوية كان عبدًا خاشعًا أوَّابًا ، دَائمَ الذكر ، طويل الدعاء والتسبيح ، حاكمًا مقسطًا ، يحكم بين الناس بالحق ولا يحابي ، يقول الله تعالى : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص:٢٦] .

٤ـ نعمة الله على سليمان

فأما سليمان فقد سخر الله له الرياح تجري بأمره وتحمله من مكان إلى مكان ، فيصل إليه في أقرب وقت وأسرع زمان وسخّر له الأقوياء والحاذقين من الجن والماردين مِنَ الشياطين ، ينفِّذون أوامره ويكملون مشاريعه العمرانية والبنائية العملاقة .

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٢] .

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ

مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣] .

٥ـ فقه دقيق وعلم عميق

وقد تجلى ذكاؤه وقدرته على الحكم الصحيح في قضية رُفعت إلى والده العظيم ، فكان لقوم كرم قد أنبتتْ عناقيده ، فدخلت فيه غنم لقوم فأفسدته ، فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم ، فقال سليمان : غير هذا يا نبي الله ، قال : وما ذاك ؟

قال : تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه كما كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها ، حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ودفعت الغنم إلى صاحبها .

وخصَّه الله بفقه وعلم دقيق فقال :

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ [الأنبياء:٧٨] .

٦ـ سليمان يعرف لغة الطير والحيوان

وقصَّ القرآن قصة حكيمة ممتعة تجلّى فيها تيقّظ سليمان في تدبير مملكته ورهبة سلطانه ، كيف جمع الله له بين سعادة الدنيا والآخرة ، وبين الملك والتمكين والنبوة والرسالة في الدين ، وكان يعرف لغة الطير والحيوان ، وجمع جنوده من الجن والإنس والطير ذات مرة ، وركب فيهم في أبهة وعظمة ، وكانوا على نظام كامل وكانوا في قيادة رؤسائهم ، فمرَّ سليمان على وادي النمل ، فخافت نملة على قَبيلتها أن تحطمها الخيول بحذافيرها ولا يَشعر

بذلك سليمان ولا جنوده ، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم ، ففهم ذلك سليمان ، ولم يأخذه التيه ولا الزهو بأنه نبي من أنبياء الله بل حمله ذلك على حمد الله تعالى وشكر نعمته ، والدعاء والتوفيق للعمل الصالح ، والانخراط في سلك عباد الله الصالحين .

٧ـ قصة هدهد

وكان الهدهد رائده وعينه يدّله على مواضع المياه ، ومنازل الجيش ، فلم يجده ، فأنكر ذلك وتوعده ، فغاب زمانًا يسيرًا ثم جاء ، فقال لسليمان : اطّلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك وجئتك بخبر صدق عن سبأ وملكتهم لهم ملك عظيم ، ودولة واسعة ، وقد وجدتهم على هذا العقل والكياسة والملك والرياسة ، أصحاب سفاهة وجهالة ، وهم يسجدون للشمس من دون الله ، ولا يفقهون ذلك ، ولا يهتدون إلى عبادة الله وحده .

٨ـ سليمان يدعو ملكة سبأ إلى دينه

وشق على نبي الله أن يكون بجوار مملكته ملك أو أمة لا يعرفها ولم تبلغها دعوته ، ولا تزال تعبد الشمس ، وثارت فيه الحمية الدينية النبوية ، ورأى من الصواب أن يكتب إلى ملكتها وحاكمتها المشركة ويدعوها إلى الإسلام ، والطاعة والاستسلام ، قبل أن يزحف على بلادها بجنوده القاهرة ، فكتب إليها كتابًا بليغًا ودعاها فيه إلى الإسلام والاستسلام .

والكتاب يجمع بين الرقة والصرامة وتواضع الأنبياء وغيرة الملوك .

***

٩ ـ الملكة تستشير أركان دولتها

فقد كان سليمان جامعًا بينهما ، وكانت المرأة التي تحكم هذه البلاد عاقلة غير متسرعة في الحكم ، عندها تجارب واسعة من سير الملوك وأخبار الفاتحين ، وإنما خانها عقلها في معرفة الإله وعبادته ، فلم تأخذها حمية الملوك ، ولم تستبدّ بالرأي ، فأطْلَعَتْ أهلَ الرأي من أركان دولتها على هذا الكتاب الذي لم يكن كسائر الكتب ، إنه كتاب من أعظم الملوك في زمانها ومن نبي داعٍ إلى الله .

ولما بدأ أركان دولتها يدلون بقوتهم وكثرة جيوشهم إرضاءً وتملقًا ، شأن جلساء الملوك والحكام في كل زمان ومكان ، لم تقبل مقالتهم ، ولم توافقهم عليها ، بل حذّرَتْهم من سوء العاقبة ، وذكّرتْهم بسيرة الملوك الفاتحين في الأمم المفتوحة ومصيرها بعد الهزيمة والانكسار ، وقالت : سيكون هذا شأن بلادنا وأمتنا ، وقالت لهم : إنني سأرسل إلى سليمان بهدايا وطرف فأمتحنه بها ، فإن قبل الهدية فهو ملك ، فقاتلوه وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه .

١٠ ـ هدية مساومة

وبعثت إليه بهدية عظيمة لائقة بالملوك ، فلما وصلت إلى سليمان أعرض عنها ، وزهد فيها وقال : أتساومونني بمال لأترككم على شرككم وملككم ، والذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ، والأمر جدّ ليس بهزل ، والقضية قضية دعوة وطاعة ، ليست قضية مساومة ، وتوعدْهم بقصد لهم وزحفه على ملكهم .

***

١١ـ الملكة تأتي خاضعة

فلما رجعت هذه « البعثة » إلى ملكة سبأ وحكت لها القصة ، سمعت وأطاعت هي وقومها وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ، ولما تحقق سليمان عليه السلام قدومهم إليه فرح بذلك وحمد الله ، وأراد أن يريها آية من آيات الله ؛ ليكون ذلك أدلّ على قدرة الله ونعمه على سليمان ، فأراد أن يحضر عرشها الَّذي وكّلت به رجالًا أقوياء أمناء ، فطلب من ملئه أن يأتوه بعرشها قبل وصول هذا الموكب العظيم .

وقد تحقق ما أراد سليمان في أقرب وقت وكان معجزةً ، وأمر به سليمان فَغُيِّرَ بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته ، وإن التبس عليها الأمر كان دليلًا على قصور نظرها في أمور أدق منه وأبعد منالًا .

١٢ـ قصر عظيم من زجاج

وأمر سليمان البنّائين من الإنس والجنّ ، فبنوا لها قصرًا عظيمًا من زجاج ، وأجروا تحته الماء ، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء ، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبين الماء ، وكان المؤكد أن الملكة تتوهّمه ماءً ، فتكشف عن ساقيها ، هنالك تتبيّن الخطأ وتدرك قصور نظرها وانخداعها بالمظاهر ، وكانت هي وقومها يسجدون للشمس ؛ لأنها أكبر مظهر للنور والحياة التي هي من صفات الله تعالى ، وهنالك ينكشف الغطاء عن عينها ، فتعرف أنّها كما أخطأت في معاملة الزجاج معاملة الماء ، فكشفت عن ساقيها كذلك أخطأت في معاملة الشمس ، معاملة الخالق فسجدت لها وعبدتها ، وكان ذلك أبلغ من مائة خطبة وألف دليل .

١٣ـ وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين

وهكذا كان ، فقد تورطت رغم دهائها وذكائها في هذا الخطأ الفاحش ، وتوهّمت الزجاجة ماءً رقراقًا يسيل ويموج ، فكشفت عن ساقيها ، وأرادت أن تخوضه .

هنالك نَبَّهَهَا نبي الله سليمان على خطئها ، وقال : إنه صرحٌ ممرد من قوارير ، وانكشف الغطاء عن عينها ، وعرفت جهلها في قياس المظهر على الظاهر ، وعبادة الشمس والسجود لها ، وابتدرت تقول : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:٢٠] .

١٤ـ القرآن يحكي قصة سليمان

واقرؤوا هذه القصة الشائقة الممتعة في القرآن ، يقول الله تعالى : ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل: ٢٠] .

وهذا نبي الله سليمان وقد رأيتم مواقفه في الدعوة إلى الله وإلى التوحيد ، وحكمته وفقهه وغيرته على دينه وعقيدته .

١٥ـ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا

نسب إليه اليهود ما لا يليق بمؤمن موحِّد شرح الله صدره للإيمان ، فضلًا عن نبي مرسل آتاه الله الحكمة ، وأكرمه بالنبوة ، وشرّفه بالخلافة ، فنسبوا إليه السحر والكفر والمداهنة للشرك ، والاضطراب في أمر التوحيد بسبب أزواجه ، فبرَّأه الله من كل ذلك فقال : ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ [البقرة: ١٠٢] .

وقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:٣٠] .

وقال : ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص:٤٠] .

*****